روح

كان كل شيئ هشّاً تلك الليلة، وكانت الحياة تتكسر تحت الرذاذ ..وصوت الحقيقة عالٍ، والصمت باردْ.
ضوء الشارع الجانبي يوحي بالأزلية، ووريقات الشجر ميتة على الرصيف كذهب أسود: "خريف دائم هذا العالم"، قلتُ! وأنا أحب الخريف الممطر فوق بنايات الحي القديم التي ما زالت تبان أطرافها السفلية كشعرٍ أسودٍ وقحٍ تحت إبط إمرأةٍ رعناء ناضجة. وألريح تغني كبحر يقذف أمواجه على ما بقي من شواطئنا ... ونركد نحن في الأعماق كحطام سفينةٍ، نحو آخر خطوة نحو المنفى.
كنت تلك الليلة أحمل جثتي فوق ذاكرتي كمن يبحث عن سكينتهٍ في كهفٍ مهجورٍ قرب جبلٍ ناءٍ فتأكله الوحوش:
"سخريةٌ غريبةٌ أن يموت الإنسان بإرادته" قلتُ! وجلست قليلاً على حافة الرصيف أراقب تصادم الرذاذ بأوراق الأشجارو بضوء عامود الكهرباء، كانت لوحة جميلة لا تفهمها العين دائماً! وكنت مستغرقاً بالتأمل عندما جاء هو!! يغني!! ويحرك يديه مثل راقصي الباليه! لم أحس بالراحة من وجود أي أحدٍ غيري في تلك الساعة المتأخرة خاصة عندما بدأ بالإقتراب مني ... وبعينيه بريق صلب كرخام وقال بعبثية شديدة:
" ماذا تفعل؟".
" أتمشى، لكن ما شأنك أنت؟"، قلتُ جملتي آملاً أن تبعده نهمتي العدوانية بعض الشيء ولكن ما لبث أن قال وبنهمة أشد عدوانية: " الحياة في الليل لي،أنتُ تعَكّرُ مزاج حريتي فاذهب من هنا." وصمت لبرهةٍ وبنهمة عبثية وإستفزازية تابع القول: " أو أقول لك، سأغني أنا وترقص أنت، فقد تعبت ... ما رأيك؟"
: " لا أعرف شيئاً عن الرقص ولكن إن شئت، أطرق باب أحد الساكنين وأطلب منه أن يراقصك !!" قلت جملتي هذه المرة محاولاً تجنب الحديث معه أكثر من ذلك فقد بدا لي أنه كان مستعداً للهو والعبث بهموم الآخرين، فظننت ربما أفضل لي أن أختصر الكلام معه وأعود لما كنت أفكر فيه، والذي في تلك اللحظة بدا بعيداً قريباً! لكنه كان مصراً على الحديث عن شيء ما وقال بعد ومضة قريبة من الصمت وبفظاظة غير منتظرة وبصوت قوي ومتسلط:" لا تصدق كل ما أقول، فليس لأحد مكان في رقصتي، ولا بأغنيتي، فاذهب من هنا!
كان شكله يوحي بالفظاظة، والوحدة، ولم أرغب في مشاجرة معه، ربما رهبة منه. على الرغم من أنني كنت في هذه البقعة بالذات قبل مجيئه، قررت القيام من مكاني فوقفت وهممت بالذهاب. وإذا به يقفز إلى ناحيتي بطريقة مستنفرة، كأنه يريد أن يصارعني، وقف قليلاً، كما هو، ثم عدل قامته من موضع الهجوم إلى موضع التحية ما بعد القتال، وبدا الوضع غريباً بعض الشيء، وإذا به يمد يده اليمنى ببطء ويشير بإصبعه إليّ لكي أعاود الجلوس، وجلس هو قبلي .. على الشارع، فرجعت خطوة للوراء قاصدا الجلوس، ولكن يبدو أن تلك الخطوة كانت متوترة الملامح حيث أنه رفع يده مرة أخرى وأشار بأصبعة إليّ كي أجلس، فجلست في الحال، متعثراً بعض الشيء. مضت لحظات من سكون أشبه بصمت حلم، أحسست بالبرد عندها .. كان الخوف أبرد من أن أنساه، وأحسست بضرورة إفراغ حصّالتي من البول ..، قال بشكل مثير وبصوت طفل صغير إكتشف لحظتها شيئاً مثيراً ومسلياً يفعله: عرفت ماذا؟ فزعت أنا من إثاراته الغريبة وهوت شجرة عملاقة للتو في غابات المطرفوق رأس أفكاري واندثر الصمت المتشبث في تراث اللحظة، ثم وبشكل يبعث الدهشة تابع بصوتٍ هادئ ذكرّني بصوت معلم التاريخ في الصف السادس الإبتدائي: " الطقوس أثمن من العادة .. ويبدو لي أنك رجل طقوس .. فأنا هنا طيلة الوقت وفي الليل فقط ولم أصادفك، ولا أظن أنك عابر سبيل .. فقد كنت تحدق في ضوء الشارع كشبح وكأنل تبحث عن معنى لوجودك فيه .. فمن أنت؟
وكمن صفعني على وجهي بت أحس بأن لا بد من أن هذه حيلة شقية يلعبها علي أصدقائي ويبدو أنهم قد وظفوا أحداً، ممثلاً مسرحياً ربما ليلعب هذا الدور، لا أحب المسرح ويبدو أنه يستدرجني إلى إحدى أبوابه، وبتردد شديد وبتأتأةٍ متحفظة قلت: أأأنا.. أأنا هو .. أنا أعيش هنا قرب البوابة الجنوبية للحي .. ووووصحيح .. صحيح أأأنا لست بعابر سبيل!! وووووكنت أراقب ككككل الأشياء، لللللللا أعرف حقيقة لماذا!! يبدو أنني كنت أناقش شيئاً ما معها، أووووو أنني كنت أنظر إليها نننننظرة أخيرة!
قال وبصوت صوفي، جدي، وشديد البطء كصوت معلم الدين في الصف الأول ألإعدادي وأسلوبه في القراءة: "تجد الله فيك إن عرفت حقيقة نفسك .. فلا تفزع .. هو هناك .. تستجديه عندما تخاف .. ويبدو أنك إستجديته عندما رأيت فيّ من يخيفك، أو على الأقل أحداً تريده أن يخيفكْ."

قلت: "من أنت، أهذه خدعة أم ماذا، أهل تعرفني أنت؟ ألن تقول أنت من أنت؟! من أنت!!؟ ومن تظن أن..."
وقاطعني بذات الصوت والدفقة و قال: أنا من هو .. أعيش قرب هذا العالم .. أنا فكرة قبل أن أكون شيء ولا تنظر أليّ هكذا! أنظر فيّ، فأنا أستلطفك."

بقيت أنظر إليه وهو يتحدث بتلك الطريقة الواثقة والتي كادت ان تكون ساخرة، ولوهلة تخيلت أنني رأيت تنيناً ينفث ناراً في بحيرة راكدة مياهها، كأنه يداعبها! كان يتنفس ببطء شديد، هادئاً وعفوياً وراسخاً مثل جبل، وغبي بذات الوقت. أدركت أنني في وضعٍ لم يمر علي من قبل، أو أنه وضع قد خطط له من قبل أصدقاء لعبة الطرنيب فسألته بتردد كمن يحاول أن يتأرجح بين عبثية اللحظة وجديتها: "هل تعيش أنت هنا ... أعني في الشوارع؟ قصدي هل هنا تنام أنت؟ في أي مكانٍ .. هنا؟؟
أجابني وإيقاع كلماته جاف مثل سور الإسمنت من ورائي وقال: " أنت فضولي .. فأنا لم أسألك من أنت إلاّ للتأكد من أنك أنت! وأنت في المقابل تسألني من وأين وكيف أعيش؟ لأنك فضولي! فقط فضولي! تجاوز يا رجل."
توترت كتلفازٍ إنتهى البث على موجاته في آخر ساعات الليل، وبات واضحا بأن موجاتي أيضاً كانت على وشك الإنتهاء أذا لم أضع حداً لهذه المهاترات فقلت وبنهمة المتحدي والمداعب بذات الوقت: "ماذا تقصد؟ هل كنت تبحث عني أنتَ؟ ومن سيبحث عني، ولماذا؟ ثم ما لك أنت؟ أنا لا أعرف شيئاً عن أي شيئ أأنت مخابرات لتسألني هذه الأسئلة؟ أو أنك من تنظيم ما وتحاول توريطي بشيء ما؟ دعني أقضي ليلتي بهدوء أرجوك وكف شرك عني .. فقط دعني ... الحياة لا تستحق الكثير من هذا ... او من ذاك! ثم أنا لست بفضولياً، لماذا تقول أنني فضولي؟ أنت الذي تحرشت بي وبدأت تستفز الموقف، من تظن نفسك هاا، أتظن أنه بإمكانك أن تتحدث بهذه الطريقة مع كل العالم وليس من أحد الحق بالتحدث معك بذات الطريقة، من تظن نفسك، أنا لم أتحرش فيك بل أنت..." وقاطعني مرة أخرى، هذه المرة بانت عليه ملامح تذمر تنذر بالخطر، فتراجعت قليلاً إلى الوراء وحاولت أستكمال جملتي ولكنه قبيل محاولتي التنفس والنطق بآخر الكلام مدّ يده بعنفوان وغضب مشيرا إلى رغبته بأن ألتزم الصمت، أو أن أخرس بالأحرى، ثم قال: أتعلم أنكم أنتم البشر قاحلون، لا ترغبون الحياة لأنكم غير قادرين على الحب، فتزدادون كرهاً لكل ما هو جميل .. أنظر .. كل شيء هنا جميل ... ألا ترى ذلك يا غبي!
قلت: الرجاء لا تغلط، أرجوك، فهذه لم تعد باللعبة المسلية، أيا كان ذاك الذي خطط لهذا ورماك علي لم يعرفني كفاية، وهذا لم يعد مسلياً، ثم ماذا تعرف أنت عن الحياة لتخاطبين بهذه اللهجةهاا، أتريدني أن أضع عقلي في عقلك؟ إذا كنت أنت تعيش في الليل كالمشتبه بهم، وتفعل أشياء غريبة وحدك كالمجنون ماذا أنت لديك أن تقوله عن الحياة هاا؟ أفليس هروباً أن تعيش في الليل .. قل لي؟ وأي جمالٍ هذا الذي تتحدث عنه هاا، أي جمال؟ لا أرى جمالاً هنا، أرى العتمة والقرف وجدران قبيحة وأناس أغبياء، هاا أين هذا الجمال؟" وفي تلك الأثناء، كانت ملامح وجهه تتغير مع كل كلمة أقولها وأحسست بأنني منتصراً في هذا النقاش الحاد وغير المتوقع، وإذا به يبدأ بالإبتسام ثم الضحك حتى أنني بدأت أنظر حولي لأعاين أي شيء مضحك في الجوار وإذا به يقول وهو ما زال يضحك: "هذا قدر في خليقتي يا صديقي، فأنا في النهار كالرييييح وفي الليل كالظظظل. هربت من الجنة، لأنني أحب الحياة، أتصدق هذا؟ وللعجب أكتشفت أن الله كان يخدعنا. فقد كان مختبئاً في الأنبياء طيلة هذا الوقت ولم يكن واحدٌ أحد، بل في كل نبي أحدْ. إلهٌ كما في كل البشر آلهةٌ! .. ولهذا فضّلت أن أعيشفي الليل، لا في نهار الجنة, كي أراني وأرى آلهتي .. لا أن أموت هناك في نهار الجنة، فإنتحرت وجئت إلى هنا، أتصدق هذا؟ على الأقل جئب لأعيش، لأنني أحب أن أعيش، ليس مثلك، لماذا تريد الإنتحار هاا قل لي لماذا تريد الإنتحار؟؟

هدئت قليلاً وتلفتّ كمن يفتش عن شيء ويعرف أنه لن يجده، وتوترت كثيراً من سؤاله وبدت على وجهي ظلال الضوء متكسرة ومتجمدة، قلت: "أنا .. لا .. نعم .. نعم، لا أريد الإنتحار، بل أنا فعلت الكثير قبل أن أعرف أنني لم أفعل شيء، لكن لماذا تقول هذا عني، لما تظن هذأ؟ "
قال: أتظن أن المعرفة ليست شيء؟ على الأقل أنت تعرف أنك لم تفعل شيء .. نعم هنا توجد بداية؟؟
قال جملته بإستهزاء وإزدراء محدثاً ذاته، أحسست بأنني طحلب إنتشلته شباك الصيد عالقاً غير مرغوب فيه.
قال: "هناك من قال " أعرف أني لا أعرف".. أذكره جيداً .. إغريقي كان .. فيلسوف.. ولكنه مع ذلك قالها .. و يبدو أنك ستنتحر بعد أول إكتشاف في نفسك وتصبح كما تخيلت أنت الآن .. طحلب.

صعقت عندما تحدث إلي هكذا بذات طريقته الساخرة عن شيء تخيلته للتو وسألته وأنا أكاد أرجف من الخوف : "وكيف ظننت هذا أيضاً، ماذا تظن أنك تفعل، ماذا تفعل، كيف عرفت هذا؟"
قال: عرفت ماذا؟
قلت: أني تخيلت نفسي .. طح .. طح ..طحلب؟!!
قال: ألم تتخيل هكذا أنت؟ ألآن، قبيل لحيظة؟!
قلت: أفتجيب السؤال بسؤال؟
قال: ولم لا؟ ألم تفعل؟
قلت: كنت أسألك أولاً
فال: اللغة فعل، وصفة فعلك إشارة لماهيتك، والله هناك .. فعبر عنه بفعلك .. لغة كانت أو رقصاً .. أو غناءاً

أو لون، هو من فيك سيشاء!

وساد صمت كالزجاج، وإجتاحني إحساس بالعدم والسخافة ... والجدية، ثم أردف:
من لا يقدر على أن يجعل لحياته معنى، لا يقدر أن يجعل معنى لحياته" قال جملته هذه وذكرني بمعلم علم الإجتماع في الصف الأول ألثانوي، ولكن هذه المرة توقفت قليلاً قبل أستكمال حالة الإستذكار وبدا لي بأنني أتذكر معلمي صفوف مدرستي كثيراً وهذا بات يزعجني لسبب أو لآخر، ويضحكني حقاً، لم أتذكرهم كثيراً هكذا، هؤلاء المعتوهين، لماذا أحملهم في روحي كمن يحمل حقائبه الشخصية وبولاء كامل! هذا غريب، غريب حقاً، علي أن أفكر بهذا!! ورجعت إلى حالتي التي بات يرثيها صديقي الجديد وقلت بتهادن من نوع ما: وما معنى حياتك أنت، أقصد إذا كنت تعرف كل هذا!؟
قال: هذا ليس شأنك
قلت: ماذا تفعل الآن، أنظر ألى هذا التصرف، أحاول أن أتحدث معك وأنت هكذا، لا أدري، قليل الأدب، أفتسخر مني يا رجل؟
قال: نعم، لأنك غبي، في عقلك تنكة وفي قلبك شاكوش وفي روحك قفص، فتخيل ما شكل الضجة التي تنتج عن هذا المزيج!
: أنت لا زلت تسخر، لا يحق لك هذا، أنا لم أسخر منك، فعاملني بالمثل على الأقل!
قال: هذه المرة لا ... إذا كان في عقلك ناي وفي قلبك إمرأة وفي روحك نهر ... فهنا أنا أتخيل أن جمالاً ما سيظل حياً ، فتخيل أنت!
قلت: كانت هنالك إمرأة، لكنها كسّرت قلبي وهربت
قال: ألم أقل أنك غبي .. ولم تفهم .. أعرف .. لم تف ..
قلت: لا بل فهمت، ولكن ذلك لن يغير شيء
قال: ألن يغير شيء أن تعرف أنك بدأت تفهم؟ ألفهم تجربة يا رجل
: لا أدري، لا أظن
قال: بل أنك تدري يا خبيث

ضحكت عندها وإذا به يرفع يده اليمنى كأنه يريد أن يحييني بأن يقرع على ظهري، وأنتظرت أن تلمس يده ظهري إشارة التحية وإذا بها تمر عبر جسمي لتخرج من صدري كالظل! لا ليس كالظل، ظل!وأستنتجت أنني كنت أتحدث مع شبح طوال هذا الوقت، وكانت هذه آخر إشارة منه بأنه سيغادر من هذا المكان. وبقيت جالساً على الرصيف مذهولا بلقاء هذا الشبح الفار، أتلفت حولي لأتأكد مما رأيت، وكان الفجر قد بدأ يبزغ والغيوم بدأت تنقشع .. لم يكن حلماً أو .. لا أدري .. أيحلم الإنسان وهو مستيقظ؟ مشيت .. وأجّلت مشروعي .. وصرت لا أغير عادة بأن أمشي يومياً عبر ذلك الشارع وأجلس على ذات الرصيف، أحدق بذات المصباح، أو لا أحدق!

عيسى بولص
أيار 1994